أبو العباس أحمد المقّرى

١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرايبى

تتمة

هذا ولا تثنى عنان القلم دون أن نشير إلى تلك القصة الشعرية الاستعراضية لحوادث الدهر وأيام الأول، وهى طويلة نجتزىء منها ببعض فقرات يقول فى فاتحتها:

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو بصر، وزرقاء اليمامه
ومسدد، أو جائر أو حائر يشكو ظُلامه
لولا استقامة من هدا ه لما تبينت الملامه

* * *

... فالعيش فى الدنيا الدنيـــة غير مرجو الادامه
من أرضعته ثديها فى سرعة تبدى فطامه
من عز جانبه بها تنوى على الغور اهتضامه
وإذا نظرت فأين من منعتْه أو منحتْ مرامه
... أين الذين قلوبهم كانت بها ذات استهامه
أين الذين تفيئوا ظل السيادة والزعامه
أين الملوك ذوو الريا سة والسياسة والصرامه
... أم أين عنترة الشجـــاع وذو الجدا كعب بن مامه
والزاعمون بجهلهم أن القبور صدى وهامه[1]
والمكثرون من المجو ن إذا شكا الفكر اغتمامه
أين الفريض ومعبد أو أشعب وأبو دلامه
أين الألى هاموا بسعـــدى أو بُثينة أو أمامه
وبكوا لفرط جواهمُ والليل قد أرخى ظلامه
وتتبعوا آثار من عشقوا بنجد أو تهامه
وتعللوا، والشوق يغـــلب، بالأراكة والبشامه
... وسقاتهـــا المتلاعبـــون بلب من أعطوه جامه
من كل أهيف يزدرى بالغصن إن يهزز قوامه
ذى غرة لألاؤها يمحو عن النادى ظلامه
فالشمس فى أزراره والبدر فى يده قلامه
يصمى القلوب إذا رمى عن قوس حاجبه سهامه
ويروق حسنا ان رنا ويفوق[1] آراما برامه[2]

ثم يشكو صروف الدهر وجفائه بفخر الأدب «ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب»:

راعت صروف الدهر دو لته، وما راعت ذمامه
حتى ثوى إثر التوى فى حفرة نثرت عظامه[3]
من زارها فى أرض «فا س» أذهبت شجوا منامه
إذ نبهته لكل شمـــل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين أســـكته وأسكنه رجامه
ومحا عبـــارته فمن حياه لم يرد سلامه
فكأنه ما أمسك الـ قلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يملُ مت ن مطهم بارى النعامه
وكأنه لم يرق غا رب الاعتزاز ولا سنامه

* * *

... مذ فارق الدنيا وقو م ض عن منازلها خيامه
أمسى بقـــبر مفرداً والترب قد جمت عظامه
من بعـــد تثنية الوزا رة، جاده صوب الغمامه
لم يبق إلا ذكره كالزهر مفـــتر الكمامه

— ٤ —

وله فى الشعر المنثور رسائل بليغـــة، ومساجلات أدبية رائقة؛ ويكفى أن نلقى نظرة على كتابه الحافل «نفح الطيب» الذى هو سجل لألوان الأدب الأندلسى، وديوان لأخبارهم وطرائفهم، والذى تدين له العروبة والتاريخ والأدب والفن بأكبر الفضـــل فى جمع أشتاتها، ونظم متناثرها، فخلد بعـــمله ذاك

(١) يقول ذو الاصبع العدوانى:
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

(١) آرام: جمع ريم وهو الظبى
(٢) وامه: موضع بالبادية تكثر فيه الظباء
(٣) إذ بلغ من كيد أعدائه أن اقتحموا عليه السجن فخنقوه ثم دفنوه فى قبر وحرقوا جثته فصار طعاما للنار كما يقول عن نفسه متنبئا:
وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نفوت فها نحن فوت

صوراً حية من الحضارة الأندلسية ، ومدنية العرب فى أوربا « من مطلع فجرها حتى مغرب شمسها » ! . . .

وإليك ما يقول فى وصف البحر حين نزوحه عن مسقط رأسه الى ديار الشرق والحجاز :

« . . . ثم جد بنا السير فى البر أياماً ، ونأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حيالها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه . فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الرياح من وكرها ، كما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دوياً عظيما وزفيرا ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيرا ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه ، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد أو يقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها ، وعنان السحب يخطف فى استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها ، وأذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت فى صورها المنون ، . . . ونحن قعود ، كقعود على عود ، ما بين فرادى وأزواج ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، فى الرواح والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد العدو . . لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد إلهى ومعونة . فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا ، ... وتشتت أفكارنا فرقا ، وذبنا أسى وندما وفرقا ، إذ البحر وحده لا كِمِىٌّ يقارعه ، ولا قوى يصارعه ، ولا شكل يضارعه ؛ لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل وشاكى ، ومتبالك وباكى ، فكيف وقد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن ، الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن . » إلى أن يقول :

« فترى الأنفاس تعثر فى زفرة الأشواق ، والأجسام قد زُرت عليها من التعب الأطواق ، وتساوى فى السير نهار مشرق ، وليل مقمر أوداج . . ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجَوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطا عن المناهل ، الى « مصر » المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا تستوفيها ، بقول ابن ناهض فيها :

شاطئ مصر جنة ما مثلها فى بلد
لا سيما مذ زخرفت بنيلها المطرد
وللرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها داودها بعبرد
سائلة ، وهو بها يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بين حادر ومصعد

— ٥ —

وبعد فلعل هذه الكلمة تكون حافزاً لأدباء العرب إلى دراسة هذا الأديب الكبير والاهتمام بآثاره القيمة ، وتوفيتها حقها من البحث والاستنتاج ، ومن هاتيك الخدمة إعادة طبع كتابيه الكبيرين « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » فى شكل يلائم قيمتهما الأدبية والتاريخية مع مراجعتهما على الأصول وتتميم النقص الذى بهما

(فاس) عبد الهادى التازى

الاسپرانتو Esperanto

كل القواعد — ومفردات تبلغ ٢٠٠٠ كلمة نظير ٢٠ مليماً طوابع بريد مصرية أو قسيمة للجاوبة — أطلب النشرة نمرة ٣٠

مدرسة الأسپرانتو بالمراسلة ص . ب ٣٦٣ بور سعيد